Majallah Al-Qism Al-Arabi
University of the Punjab,
Lahore - Pakistan.
No.25, Issue: 2018

مجلة القسم العربي
جامعة بنجاب، لاهور– باكستان.
العدد الخامس والعشرون، 2018م.

الحكمة في شعر طرفة بن العبد

د. مسعود احمد مجاهد
الأستاذ المساعد بجامعة المنهاج لاهور
حافظ سيد مبشر حسين كاظمى
المحاضر بجامعة لاهور

Abstract :

Wisdom in the poetry of Tarfa bin Alabd

In the works of literature, prose and poetry carry a great import as they reveal the beauty of language. Though both of these genres of literature stand prominent in Arabic, their attraction is felt greater in poetry. The Arabs classify the literature in verses into the following categories: the era of ignorance (العصرالجاهلى), *makhdaram* (مخضرم), the early period of Islam (صدراسلام), the Umayyad period (عصر الاموى), the Abbasid period and the later ages. *Muallaqat* (معلقات), collections of pre-Islamic Arabic odes, composed in the era of ignorance (العصرالجاهلى), are widely admired on account of their skilful use of language. The poets who composed *muallaqat* are regarded so high that they are considered the heroes of Arabic language. Tarafa bin al-Abd is among the poets who composed a *muallaqa*. Some critics regard him to be the best of the pre-Islamic poets, if not the greatest Arab one.

Pastoral poetry is celebrated in English and other languages but its scope is much wider in Arabic when we consider its different kinds: ode simile (تشبيب), *nasib* (نسيب), *hamasa*, *tafakhur*

(تفاخر) and *hikma* (حكمة). Tarafa bin al-Abd (طرفة بن العبد) composed his poems in all these branches of pastoral poetry. The present research paper deals with poetry on wisdom, and we should not lose the sight of wisdom handed down by the poets of pagan times. On this score the Prophet of Islam (peace and blessings be upon him) said: "Wisdom is the lost camel of a believer." In the light of this Prophetic adage, the following pages of this article throw light on the wisdom-laden thoughts of Tarafa bin al-Abd.

Key Words: Arabic literature and language, prose and poetry, dark age, muallaqat, Tarafa bin al-Abd.

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، والصلاة والسلام على أفصح الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين. وبعد...

فهذا بحث وجيز أتناول فيه طرفة بن العبد وأبيات الحكمة في معلقته بالدراسة والتحليل على نحو يوضح سلوك حياة هذا الشاعر الألمعي الذي – رغم موته في ريعان شبابه – استطاع أن يثري الأدب العربي، وأتعرض لكشف الأسرار البيانية والمعالم الشعورية لشعر الحكمة من معلقته التي جعلته يتبارى في ميدان الأسبقية مع امرئ القيس وزهير، مع معالحة شعره علاجا متأنيا يدرك أنه وإن حلق في فضاء الشعر بارعا مجيدا إلا أنه في معلقته نسيج وحده أتى فيهابما يدل على فهمه النفس البشريه والنفس الحيوانية وقدرته العجيبة على ابتكارالمعاني، ويشهد على ذلك ملكته التعبيرية في رقة وعذوبة وسلامة.

الحكمة لغة واصطلاحا، والقضايا العالقة بها

قال ابن فارس: الحاء، والكاف، والميم أصل واحد وهو المنع... ويقال حكمت السفيه وأحكمته إذا أخذت على يديه، والحكمة هذا قياسها لأنها تمنع من الجهل[1].

وقال صاحب اللسان: الحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل

العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات، ويتقنها حكيم... والحكمة: العدل[2].

وفي القاموس: الحكمة بالكسر... من معانيها العلم، والحلم، والنبوة، والقرآن، والإنجيل[3].

وزيد عليه في المعجم الوسيط حيث قيل: الحكمة: العلة يقال حكمة التشريع، وما الحكمة في ذلك؟، والكلام يقل لفظه ويجل معناه، والجمع حكم، وعلم الحكمة: علم الكيماء والطب[4].

وفي الاصطلاح: كل كلام وافق الحق فهو حكمة، وقيل الحكمة هي الكلام المعقول المصون عن الحشو[5] وقيل الحكمة: معرفة الحقائق على ما هي عليه بقدر[6].

ونستطيع القول إن الحكمة في الشعر تلخيص الفكر العميق باللفظ الدقيق في دلالته على المعنى، أو تضمين الأبيات القليلة معان جليلة درج العرب على تسميتها جوامع الكلم.

أثر البيئة في تشكيل الحكمة

الحكمة لا تتخلى عن التأثر بالبيئة، وبالعصر، وبالأشخاص الذين يصوغونها، فلكل شاعر لون خاص في صياغة الحكمة حسب اختلاف طبائعهم، ووفق تباينهم في النظرة إلى الحياة، وتتباين وسائله فنجد في البعض الهدوء والاتزان والوعظ، والرضا بالواقع. بينما البعض الآخر يمتلأ بالتشاؤم، واليأس والمرارة والتمرد[7].

مصادر الحكمة

تتعدد مصادرها منها تجارب البشر، وذكائهم وبصائرهم، وتأمل الماضي، وقياس الثاني على الأول، واستخلاص العبرة، ومصادر أخرى كفلسفة القدماء، والوحي والقم والتشريعات غير أنها قليلة الأثر لضآلة حظهم منها، واعتمادهم الأول على التجربة الحية العلمية[8]. ولهم في ذلك عذر مقبول لأنهم لم يقيموا في ممالك ذات معاهد ومدارس كالإغريق مثلا إضافة إلى أنهم كانوا يعيشون في زمن الفترة؛ فلا غرو أن يبقى

الحس الصادق المقرون بالذكاء الفطري، والتجارب التي يسلكها العقل مسلك التنظيم والدقة كمصدر جامع لحكمتهم.

بين الحكمة والمثل

ألف العرب كتبا في الأمثال، ولكنها – وبخاصة الكتب القديمة – لم تفرق بينهما، إلا أننا نجد إشارة في عبارتهم حين يعرفون المثل أنهما قد يجتمعان. إلا أنه يمكن الاستئناس بأسس للتميز بينهما من تعريف المثل لابن السكيت والمبرد بأنه قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول[9].

ومن تعريف أبي عبيد القاسم: بأن الأمثال هي حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه[10].

وعرفه السيوطي بأن: المثل ما تراضاه العامة، والخاصة في لفظه، ومعناه حتى ابتذلوه فيما بينهم، وفاهوا به في السراء، والضراء، واستدروا به الممتنع من الدر، ووصلوا به إلى المطالب القصية، وتفرجوا به عن الكرب، والمكربة، وهو من أبلغ الحكمة[11].

وبالتأمل فيما سبق من أقوال القدماء في تحديد معنى المثل أمكننا أن نستخلص بعض الفروق:

إذا كانت الحكمة تعبيرا عن خبرات الحياة بعبارة محكمة فإن المثل لا يطلق إلا على أروع ضروب البيان الذي يجمع الإيجاز، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه مع كونه قولا سائرا ترضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه. ويؤيده ما قاله المستشرق زلهايم رودلف في كتاب الأمثال العربية من أن المثل مع أنه يقترن بلفظ الحكمة في التعبير عن فكرة مشابهة فإن الحكمة تمتاز بأنها تجمع كل ما يتصل بالعادات والتقاليد والتدابير والأقوال السائرة، والعبارات النادرة فهي تعبير عن خبرات الحياة في صيغة تجريدية[12].

ثم إن المثل والحكمة يتشابهان من حيث الصدق، والإيجاز، والتكثيف، وإحكام العبارة...[13] ولقد أصاب عفيف عبد الرحمن إذ قال إنهما يلتقيان في الهدف والنتيجة ويفترقان في الأسلوب[14].

ومما سبق اتضح أن العلاقة بينهما عام خاص مطلق فلو وجدت عبارة صادقة موجزة محكمة خالية من التشبيه معبرة عن التجربة في الحياة وهي غير سارية فهي حكمة لا غير، ولو وجدت في صورة تشبيهية، وسارت حتى ابتذلت فهي مثل وحكمة فمن الممكن أن تنفرد الحكمة من المثل، ولا يمكن أن يفترق المثل عن الحكمة وهذا هو السبب فيما قاله العسكري في جمهرة الأمثال: كل حكمة سائرة تسمى أمثالا.

سمات الحكمة

حكمة العرب بنت التجربة، وحكمة اليونان بنت الفلسفة؛ ولهذا طبع شعر الحكمة في العصر الجاهلي بسمات منها: البساطة، وارتباطها بالفطرة والتجربة.

وقد وضح يحيى الجبوري هذه السمة فقال: ولا أزعم أنها فلسفة ذات أصول... بل هي إلى الإحساس الذاتي، والتأثر أقرب منها إلى التفكير العلمي فهي نظرات وانطباعات... ومنها الوضوح والبعد عن الغريب. وهناك سمة ثالثة وهي مخالطتها الموضوعات الأخرى...[15].

طرفة بن العبد حياته ومنزلته الشعرية

اسمه هو: طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان [16] ولقب بطرفة لقوله[17]

لا تعجلا بالبكاء اليوم مطرفا و لا أمير كما بالدار إذ وقفا[18]

كنيته: اختلف الباحثون في كنيته إلى آراء فقال محمد بن حبيب: أبو إسحاق[19]. وقال أبو عثمان الأشناندانى: أبو عمرو[20]، وهي عند المرزباني: أبو

إسحاق، وأبو سعد، وأبو عمرو[21].

كما اختلفوا في اسمه فقد ذهب معظمهم إلى أن اسمه طرفه بينما قال محمد بن حبيب أن اسمه عبيد[22] وهو عند ابن قتيبة والمرزباني عمرو[23].

ولقد كان لموت أبي طرفة وطرفة صغير أثر سوء على الأسرة بكاملها فها هو ذا طرفة يشب يتيما فلا يعرف عن أبيه شيئا، ولو عرف شيئا لفصل القول فيه، وهو الشاعر الملهم، وها هي وردة أم طرفة يهضم حقها من أعمامه فلا تستطيع أن تنتصر، وبمن تنتصر وزوجها قد غيبته التراب، وبنوها لما يشبوا عن الطوق.

مولده: أما مكان ولادته فيمكن أن نعتبر مضارب قومه في شرق الجزيرة العربية، وأطراف العراق مكان ولادته؛ لأنها كانت مضارب بكر بن وائل قبيلة طرفة.

وأما متى ولد فلو نظرنا إلى ما اتفق عليه الرواة استطعنا أن نصل إلى شيئ ما في هذا الباب على وجه التقريب. لقد اتفق الرواة على أن مقتل طرفة كان في عهد عمرو بن هند (تربع على عرش الحيرة بين 554–569م)، وعليه فإن طرفة لابد أن يكون قد قتل قبل سنة 569م، وهي السنة التي قتل فيها عمرو بن هند.

والأمر الثاني المتفق عليه أن طرفة لم يعمر طويلا؛ فقد عاش بين عشرين إلى ست وعشرين سنة[24].

فلو افترضنا أنه قد هلك في أول عهد عمرو بن هند مستوفيا (26)سنة لوجب أن يكون مولده حوالي سنة 528 م، ولكن سنة وفاته غير معروفة بالضبط، والمعروف فقط أنه قد هلك بين سنتي 554م — 569م. وبدهي أن الذي يهلك بين تينك السنتين مستوفيا(26) سنة فلابد أن يكون قد ولد بين سنة 528م – 543م.[25]

وبناء على هذا فإنه إذا صح مقتل طرفة في عهد عمرو بن هند، وصح كون عمره عشرين، أو ستا وعشرين سنة، وصح تاريخ اعتلاء عمرو بن هند عرش الحيرة، وصح تاريخ نهاية حكمه فإن طرفة يكون قد ولد بعد سنة 528م، ومات قبل سنة 569م.

وبين هاتين السنتين عاش طرفة بن العبد ما بين عشرين إلى ست وعشرين سنة. والرواة مختلفون في عدد سنوات عاش فيها طرفة إذ يقول البعض بأنه عاش عشرين سنة، والآخرون بأنه عاش ست وعشرين سنة، ونقل أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني أنه قتل وهو ابن ثمانية عشر سنة [26] وكل أتى بما يؤيد ما يراه غير أن الذي يميل إليه ظني أنه عاش ستا وعشرين سنة.

هذا وقد نشأ شاعرنا فقيرا كما يتضح ذلك من الأخبار التي وجدت عنه، وكما يتبين من قوله:

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد
فأصبحت ذا مال كثير وزارني بنون كرام سادة لمسود[27]

فها هو شعره يدل على حالته الاقتصادية على أنه كان رجلا فقيرا، بينما يرى في محيطه أبناء عمومته بمال، وجاه، وحشم، وخدم فجعل يتمنى أن يجعله الله بمشيئته ذا مال وأولاد. أما الأول فقد حصل فعلا فقد يروي شراح المعلقات أن شعره هذا أثار شفقة ابن عمه عمرو بن مرثد فأرسل في طلبه فقال له أما الولد فالله يعطيكه، وأما المال فلا تبرح حتى تكون أوسطنا مالا ثم أمر بنيه وبني بنيه فأعطوه مائة من الإبل[28].

ومما يدل على حالته الاقتصادية ما رواه التبريزي عن ابن الأعرابي قال كان لطرفة وأخيه إبل يرعيانها يوما ويوما فلما أغبها طرفة قال له أخوه معبد: كأنك ترى أنها إن أخذت يردها شعرك هذا قال: فإني لا أخرج حتى تعلم أن شعري سيردها[29].

نبوغه وثقافته: ظل نبوغ طرفة المبكر لغزا من الألغاز حير الباحثين، وشغل أذهان القدماء منهم والمحدثين حتى ذهب بعضهم إلى أن طرفة ربما قال الشعر في السابعة من عمره، أو قبل ذلك التاريخ، وإلا فكيف تبوأ هذه المكانة المرموقة في سنوات عمره القصار بين المعمرين من فرسان الشعر، والبلاغة.

وبإمكاننا أن نصل إلى أمر نبوغه المبكر من خلال الأخبار التي ترددت على ألسنة الرواة كقصته مع القنابر وهو صغير والقصة مذكورة في شرح أدب الكاتب

للجواليقي[30] ونلمح فيها نبوغه المبكر والاستعداد الفطري للشعر، أو قصته مع كبار الشعراء آنذاك ومقولته الشهيرة "استنوق الجمل"[31] وقيل إن الحادثة هذه التي قال فيها طرفة مقولته وقعت مع المسيب بن علس، وممن قال به ابن السكيت في روايته لديوان طرفة، والآمدي في الموازنة، والجرجاني في المنتخب من كنايات الأدباء وغيرهم[32] وهي منسوبة لعمرو بن كلثوم في جمهرة الأشعار وفي الموشح للمرزباني[33]، أو قصته مع أعمامه الذين هضموا حق أمه. ونستنتج أن طرفة كان موهوبا بنبوغ وفطنة قلما يوهب بهما إنسان في صباه، ولقد صدق القيرواني إذ قال: لقد خص بأوفر نصيب من الشعر بأنزر نصيب من العمر[34].

هذا عن نبوغه فأما ثقافته فلم يكن أمرها أقل عجبا من أمر نبوغه بل لعلها ترتبط به ارتباطا وكيف لا؟ وقد ضمن شعره في ذلك الحظ القليل من حياته من الأمور الثقافية ما كان كثير منه مجهولا عند الكثيرين فقد عرف الكثيرون من أماكن الجزيرة، ومنازل أهلها، ومضارب سكانها... الخ. ولو ذهبنا نضرب الأمثلة لكل ذلك من أشعاره لطال بنا المقام، ونكون قد خرجنا عن هدفنا الأصلي إلى شيئ لا يمس هدفنا مساسا.

طريقته في الحياة: والتي كانت تدور حول ثلاثة أشياء: الإباحية المطلقة، والاعتداد بالنفس والجرأة الشديدة على الهجاء مما كان له أثر بعيد المدى في موته، فأما إباحيته فإنه يقررها بنفسه حين يقول:

فلو لا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكري إذا ما نادى المضاف مجنبا كسيد الغضا نبهته المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الطراف الممدد[35]

وأما الناحية الثانية من نواحي حياته فهي اعتداده بنفسه والذي يتجلى واضحا في قوله:

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلد[36]

فهل رأيت اعتدادا بالنفس كهذا الاعتداد، وهل سمعت اعتزازا كهذا الاعتزاز.

وأما الناحية الثالثة من حياته فهي جرأته على هجاء غيره من غير تفريق بين الأباعد، والأقارب فقد هجا أعمامه حين هضموا حق أمه كما هجا عمرو بن هند ملك الحيرة حتى قتله، وهجا عبد عمرو بن بشر بن مرثد، وابن عمه، وزوج أخته، ومن هجاءه أقربائه قوله:

يا عجبا من عبد عمرو وبنيه لقد رام ظلمي عبد عمرو فأنعما

ولا خير فيه غير أن له غنى وأن له كشحا إذا قام أهضما[37]

ويرجع بعض أهل العلم هذه الظاهرة إلى اعتداده بنفسه[38] والبعض الآخر إلى تكوينه النفسي الذي افرزته ظروفه الاجتماعية[39] كما يرجع ثالث إلى كونه ذا حسب في قومه، وذا مكانة بينهم[40].

نهاية طرفة: سبق أن ذكرنا أنه كان فتى تياها فخورا بنفسه فشبب بأخت الملك غير مبال فحقد عمرو بن هند على طرفة، ولكنه كره أن يعجل عليه إشفاقا من هجاء المتلمس فلبث يتحين الفرص ليتخلص من الاثنين معا، وهو يؤانسهما حتى اطمأنا إليه فكتب إلى عامله في البحرين، وقال لهما: انطلقا إليه، وخذ جوائزكما.فحملا الكتابين، أما الملتمس فقد عرف ما في الصحيفة وقذفها في البحيرة فضرب المثل بصحيفته، وسار طرفة حتى إلى البحرين، وكان صاحبها أبوكرب ربيعة بن الحارث، فأبى قتله وحبسه عندما امتنع عن الهرب ثم كتب إلى عمرو بن هند يقول ابعث إلي عملك من تريد فإني غير قاتل الرجل؛ فأرسل عمرو رجلا من بني تغلب يقال له عبد هند، واستعمله على البحرين، وأمره بقتل طرفة، وقتل ربيعة بن الحارث فقدمها عبد هند، ولبث أياما فاجتمعت بكر بن وائل فهمت به، وكان طرفة يحضهم فانتدب له رجلا من الحرائر يقال له أبو ريشة فقتله، وقتل معه العامل السابق. وقبره معروف بهجر في أرض بني قيس بن ثعلبة[41].

منزلته الشعرية: وضعه ابن سلام في الطبقة الرابعة لقلة شعره بأيدي الرواة، ولكنه قال فيه: إنه أشعر الناس واحدة وهي قوله: لخولة أطلال...[42]. وقال ابن قتيبه: هو أجود الشعراء طويلة[43]. وقال ابن رشيق: طرفة أفضل الناس واحدة عند العلماء وهي المعلقة[44]. وقال أبو عبيدة: مر لبيد بمجلس في الكوفة وهو يتوكأ على عصا، فلحقه فتى من أهل المجلس وسأله: من أشعر العرب؟ فقال: الملك الضليل، يعني امرء القيس. فسأله: ثم من؟ فقال: الغلام القتيل، يعني طرفة. فسأله: ثم من ؟ فقال الشيخ أبو عقيل، يعني نفسه[45].

ومهما يكن من أمر هذه الرواية فإنه يستدل منها ومما تقدم من الأقوال أن طرفة فضل بمعلقته على سائر الشعراء. وهذا التفضيل يعود إلى ما فيها من تصوير صادق لحياته البدوية، وما يتخلله من الآراء والحكم، والفوائد التاريخية، إلى ما هنالك من دقة الوصف، وبراعة التشبيه، وقوة التعبير. وحسب صاحبها فضلا أن يكون غلاما في العشرين.

أبيات الحكمة من معلقة طرفة بن العبد البكري

مناسبة القصيدة، وموضوعاتها: قبل أن نتعرض لأبيات الحكمة بالتحليل يجدر بنا أن نوجز الحديث عن معلقة طرفة، ملما بمعانيها إلماما سريعا لنكون على إلمام بما تنطوي عليه حتى إذا أخذنا في تحليل ما ورد فيها من أبيات في موضوع الحكمة والتي لم ترد في موضوع مستقل، وإنما هي تناثرت في ثنايا الموضوعات المتعددة فيها نكون على معرفة من علاقتها بالسياق؛ لئلا يذهب بنا الوهم ونحن نقرأ بيتا من الحكمة إلى أنه غريب في موقعه لا علاقة له بما سبقه ولحقه.

ولو ذهبنا نتعرف على مناسبة هذه المعلقة نجد الباحثين يختلفون فيها كما يختلفون في تسمية المعلقات بهذه الاسم فقد قال الدكتور بدوي طبانة في معلقات العرب أن بعض الرواة ذكروا أن السبب الذي حمل طرفة على قولها هو أنه كان لطرفة ولأخيه معبد إبل يرعيانها يوما ويوما، فأغبها طرفة في المرعى فلامه أخوه على فعله وقال: أرأيت إذا ذهبت إبلنا أكنت تردها بشعرك ؟ قال فإني لا أخرج

أبدا حتى تعلم أن شعري سيردها إن أخذت! وأخذها ناس من مضر. فقال قصيدته وإذا نحن اجتهدنا في طلب ذلك السبب في أنحاء القصيدة والفحص عنه بين أبياتها فلن نجده واضحا بارزا بين أبياتها الكثيرة إلا في أبيات قليلة منها:

فما لي أراني وابن عمي مالكا متى أدن منه ينأ عني ويبعد
يلوم وما أدري علام يلومني كما لا مني في الحي قرط بن معبد
و أيأسني من كل خير طلبته كأنا وضعناه إلى رمس ملحد
على غير ذنب قلته غير أنني نشدت فلم أغفل حمولة معبد

ثم أبيات باقية يختلط فيها العتب بالفخر، والهجاء بالتهديد، ولا يختص بالإبل التي ضيعها، وطلب العون على ردها، وفي هذا ما يحمل على القول بأن هذه القصيدة الطويلة لم تصنع في وقت واحد، وأن الشاعر قد استكمل لها الخصائص الفنية في روية وتؤدة حتى بلغ بها ذلك المبلغ التي عدت بها من غرر الشعر الجاهلي[46].

والآن بعد هذا الحديث الموجز عن مناسبتها نأتي إلى الحديث عن موضوعاتها ومعانيها فنقول:

إن معلقة طرفة هي الثانية في المعلقات، وهي كسائر الشعر الجاهلي متعددة الأغراض والمرامي. يستهلها بوصف أطلال خولة وحدوجها، ثم ينتقل إلى وصف الناقة، فوصف معيشته وكرمه، فمعاتبة ابن عمه مالك، فالافتخار بنفسه، فذكر آرائه في الموت والحياة إلى غير ذلك من الأغراض التي لا يتألف منها وحدة الموضوع. وهذه موضوعات القصيدة ومعانيها:

الغزل: يبدأ قصيدته بغزل يتغزل فيه بامرأة مالكية تسمى خولة فيقول:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقوفا بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

وهنا ينتقل الشاعر إلى ذكر حدوج المالكية فيشبهها بالسفن ثم يأخذ في وصف تلك السفن حتى إذا انتهى عاد إلى وصف من يهوى وهذه خصيصة في الشعر الجاهلي تجعله لا يترك الموصوف حتى يصوره من جميع جهاته، ولهذه

الأبيات قيمة تاريخية تفيدنا ما كان في البحرين من ملاحة وصناعة سفن.

وصف الناقة: ينتقل فجاءة إلى ناقته التي ينفي بها الهم عند حضوره:

و إني لأمضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

فيمعن في وصفها متناولا أعضاءها عضو عضوا، مشبها عظامها بألواح التابوت، وعدوها بعدو النعامة، وشعر ذنبها في بياضه بجناحي نسر أبيض، وأخلافها بقربة بالية لانقطاع لبنها، وفخذيها ببابي قصر منيف أملس، وأضلاعها المتصلة بفقارها بالقسي، وإبطها في السعة ببيتين من بيوت بقر الوحش، ومرفقيها وبعدهما عن جنبيها بسقاء يحمل في يديه دلوين، وعلوها بقنطرة رجل رومي، وجنبيها بسقف أسند بعضه إلى بعض، وآثار النسع في ظهرها بنقر في الصخرة الملساء، ثم شبه هذه الآثار في تلاقيها وتباعدها ببنائق بيض في قميص مقدود، كما شبه عنقها في ارتفاعه وانتصابه بسكان سفينة جارية في نهر دجلة، وجمجمتها بالسندان، وطرف الجمجمة بالمبرد في دقته وصلابته، وخدها بقرطاس الرجل الشامي في املاسه، ومشفرها بالجلد اليماني في لينه، وعينيها في صفائهما وبريقهما بالمرآة، وبالماء في نقرة صخر، وحجاجيها وغؤور عينيها فيهما بكهفين أي مغارتين، وعينيها في حسنهما بعيني بقرة وحشية مذعورة لها ولد، وأذنيها في تيقظها بأذني ثور وحشي منفرد كثير الحذر، وقلبها في صلابته بمرداة أي صخرة تكسر بها الصخور، ثم في النهاية شبه ما يحيط بها من الأضلاع بحجارة عريضة محكمة، ولا يخفى ما في هذا القسم من الفوائد التاريخية عن العصر الجاهلي.

حياته وشاعريته: ثم يتفرغ من وصف الناقة، وتصويرها إلى نفسه ليصف معيشته في السلم والحرب، فإذا هو يحب اللهو والعبث كما يحب الحرب وإغاثة الملهوفين، وإذا هو مبذر يكره جمع المال لأن الموت لايفرق بين الكريم والبخيل، والكريم خير من البخيل. وفي هذا القسم يطلعنا على آرائه في الحياة والموت، وعلى اضطهاد عشيرته له، وعلى غير ذلك مما يتعلق بحياته. وهو أهم أقسام المعلقة لأن به تظهر خصائص الشاعر تمام الظهور فلا خولة طرفة، ولا ناقته تجذبه إلينا أو تجذبنا إليه فليس في نسيبه

ما يغري بنا، ويستخف قلوبنا، وليس في وصف عوجائه المرقال ما يجمع روحنا بروحه، ويربط دنيانا بدنياه وإن كان هو أدق وصف لها بشهادة المتقدمين والمتأخرين، وإنما طرفة نفسه دون غيره بلهوه ومرحه، وبفخره واعتداده، وبتشكيه وتظلمه يحملنا إليه، أو يحمل ذاته إلينا فنحس بإحساسه: نأسى لألمه، ونبتهج لحماسته، ونضحل لسروره فحياته في شعره لها أثر قوي في توجيه هذا الشعر، وضم ورحه إلى أرواح قرائه، وإذا لم يكن فيه ما في شعر امرء القيس من انطلاق النفس، وعمق التصور، وتلوين الخيال المتحر ك فإن فيه من صدق الشعور، وفطرة النفس، وبساطة التعبير ما يفيض عليه الجمال، ويضمن تقريبه إلى القلوب.

والشعور الصادق عامل رئيسي للفن يبعث النشاط في النفس، ويحبو الجمال عنصر الحياة، وكل عمل فني فاته الشعور الصادق لا يستحق أن يعد من أنباء الحياة، وليست النشوة التي تحدثها حياة الفن إلا ائتلافا موسيقيا بين الشعور، والخيال، والإدراك تتولى الألفاظ إخراجه في الشعر كما تتولى إخراجه الموسيقى، والرسم، والاوتار، والألوان وطرفة ربيب البحرين شهد من الحضارة، والعمران ما لا يشهده ساكن الخيام في بوادي نجد والحجاز، ونشأ يتيما لا يد فوقه تقوم على تأديبه إلا يد أمه، ولم تكن قاسية عليه، ووجد في حوزته مالا وافرا فراح يختلف إلى الحوانيت وهو في العشرين أو دون العشرين يصحب الندمان، ويشرب الخمر، ويعاشر القيان، حتى أنفق ما لديه، وأفلس فخلعته عشيرته، وأوسعته لوما وإهانة، وكان أقرب الناس إليه أخوه وابن عمه أشدهم وقيعة به فتألمت نفسه الفتية، وأبت أن تصبر على الضيم في أنفتها وشدة إحساسها فتفجرت منها ينابيع الشعر ثائرة على الظلم ساخطة على الأقرباء مستهينة بالموت والحياة، وليس للشاعر غير فنه يسكن به آلامه، ويبث شكايته، ويرد عن نفسه فاندفع طرفة يسفه أقوال لائميه، ويبدي لهم صلاح أعماله وفساد آرائهم في شيئ غير قليل من القحة، والعناد، والزراية والتحدي. وبنى أحكامه على الخلود والفناء فما دام الإنسان ميتا على كل حال، وما دام لا خلود في هذه

الدنيا لحي ؛ فلماذا لا يبادر الفتى منيته بماله وملذاته، تلك الملذات التي يختصرها في ثلاثة أشياء الحرب، والخمر، والنساء. فهذا الدفاع الحار بحجج يسيطر فيها الشعور الصادق على الفكر هو الذي يحبب إلينا شعر طرفة، وما شعره إلا صورة لحياته الهائجة المضطربة، تلك الحياة التي ينكرها عليه أهلوه، ويضطهدونه من أجلها، ويراها مع ما لقي بسببها من إفلاس، وطرد، وشقاء مثلا أعلى لا يسمو إليه إلا كل فتى كريم يجمع الشرف، والنجدة، واللهو، والغزل.

حكمة وشكوى وفخر واعتزاز: ثم ينتقل إلى صب ما اختلج في صدره من خلاصات التجارب فأخذ ينشأ شعرا يفصح عن رجل بصير بالحياة درب عليها وخبرها، ويؤدي بنا القول بأنه عاش المواقف، وعلمها، وعايش الرجال، وعلم منهم، وكل ذلك حيث يتحدث عن الموت الذي لا يفرق بين البخيل والكريم حين يأتي الأجل، وعن الحياة التي تشبه كنزا يئول إلى النفاد على مر الأيام، وعن الموت الذي في مدة تجاوزه الفتى يشبه الحبل الذي يطول صاحبه للدابة، ولكن لايدعها تتخلص منه. ثم تنتقل إلى شكوى فيشكو عن ملامة ابن معبد ومالك له بلا ذنب، ومع أنه يجهد نفسه في الحفاظ على ما بينهم من صلة القربى، وفي الدفاع عنهم، ويبلغ من ألمه تجاه تحاملهم عليه أنه جعل يتمنى أن يتركوه في حاله، وعلى مشية ربه لأن ظلم ذوي القربى أشد ألما، ثم تطرق إلى الحديث عن صنائعه مما يعتز به، ويفتخر به فهو رجل مسرع، دخال في الأمور لايزال السيف القاطع الذي لا يخطئ الهدف، ولا يحوج إلى الضربة الثانية معلقا بجنبه، وأنه معروف بين الإبل بسخائه فتخاف منه أن يعقرها، ولكنه لا يبالي بشيئ، ويعقرها، ويطعمها الجواري الحسناوات.

رثائه نفسه: ولايكاد ينتهي من صنائعه حتى يأخذ في رثاء نفسه فيخاطب ابنة معبد، ويطلب منها أن تقيم النياحة على موته كما يليق بشخصيته لأنه لم يكن كعامة الناس، وإنما كان متصفا بالخصال المطلوبة في الرجل الشجاع، ومع

ذلك لم يحظ بحظ كبير من الثروة والشهرة، ثم يعود مرة ثانية إلى الحكمة لينهي قصيدته بها فيقول ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود، وهو من كلام النبوة فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتمثل هذا البيت كلما أبطأ عليه الخبر على ما قاله صاحب العقد القريد والثعالبي.

تحليل أبيات الحكمة

قال: ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فإن كنت لا تسطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي[47]

المفردات: ألا: حرف تنبيه. أي: نابت مناب حرف النداء. هذا: موصوف. اللائمي بمعني الذي يلومني، وينهاني صفة لاسم الإشارة، وهو مضاف إلى المفعول به، وهذا جائز مع أنه مصحوب بأل لأنه صفة. أحضر: مرفوع على حذف أن الناصبة، ومنصوب على أنها مقدرة، وهو أجود بدليل المعطوف المصحوب بأن المذكورة. الوغى: الصوت والجلبة، وسمي به الحرب لوجود ذلك فيها. الشهود: الحضور. اللذات: مواضعها. وأخلده: بمعنى أبقاه. تسطيع: أصله تستطيع، واسطاع لغة في استطاع. المنية: الموت لكونه مقدرا بوقت معين. أبادره: أسابقه.

معنى البيتين: ألا يا أيها الذي يلومني على شهودي مواطن الحرب، وهي مظان بذل النفس لئلا أقتل، وعلى حضوري محافل اللذات، وهي مواقع بذل المال لئلا أفتقر ما أنت بمخلدي إن قبلت منك فدعني أحضر الحرب، وأشهد مواضع اللذات، وأنفق ما بيدي من المال في الملذات قبل أن يأتيني الموت.

التذوق البياني: إذا أردنا أن ندرك سر بدء البيت بحرف التنبيه ألا؛ يجب أن نقف على سياقهما فإنهما لم يردا ههنا عشوائيا كما يتوهمه البعض، ولكنهما وثيق الصلة بسياقهما فطرفة تحدث عن نفسه بأنه لا يمتنع عن العطاء، ولايقضي حياته مستخفيا عن مواطن الاجتماع وبمعزل عن أصحابه وندمائه، ولكنه يعطي، ويشهد، وينفق، ويرافق ثم أكد بقوله " وما زال تشرابي الخمور... أن هذا موقفه من الحياة، وهو ماض عليه، ثم ذكر النتيجة التي أدى به إليها هذا الموقف إذ قال: "إلى أن تحامتني العشيرة كلها

وأفردت إفراد البعير المعبد" إذن أصبح طرفة شبه خليع في قبيلته، ولا شك أن هذه النتيجة وإن كانت تؤرق طرفة، وتدفعه إلى السفر، والرحلة لكسب المعاش غير أنها لم تستطع أن تصرفه عما هو فيه بل عكس ذلك زادته إصرارا على موقفه مما جعله يخاطب مجادله الذي قد يكون أخاه معبدا، وقد يكون ابن عمه مالكا، وقد يكون أي فرد من أفراد العشيرة التي تحامته وتجنبته، وكأن المجادل ينكر على طرفة موقفه هذا من نفسه وماله وإصراره على هذا الموقف مما جعله لا يكتفي بحرف النداء في الخطاب إليه ولكنه أتى بحرف التنبيه قبل النداء ليتحقق فحوى الكلام الذي يليه في ذهن المخاطب. ثم لنتأمل حرف النداء المحذوف، ونتعرف على براعة الشاعر في وقوفه على أسرار حذف الكلمة وذكرها فما أبلغ هذا الحذف الذي يدل يكمن فيه ضيق قلب الشاعر من جدال اللائم إياه وكأنه لا يغفل عن ملامته للحظة فلا يغفل عن التوجه إلى طرفة فهو منه بحيث لا يحتاج إلى ذكر حرف النداء الذي يطلب به إقبال المخاطب وهل كنا نعلم بهذا السر لو ذكر حرف النداء ومن هنا ندرك مدى الصواب في قول شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر حين مهد للكلام عن أسرار الحذف والذكر: هو باب... شبيه بالسحر فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر[48]. ولا يغب عن بالنا جمال كلمة "هذا" في هذا الموقع بالذات فإنها مكمن سر هو سخرية الشاعر من المجادل وتهكمه من جداله على موقفه، ثم لنا أن نتدبر التعبير بالمضارع: أحضر الوغى، وأشهد اللذات؛ لنقف على أن الحضور في الوغى، وشهود الملذات أمر لم يحصل من الشاعر مرة بل ظل حصوله وسيظل يتجدد منه مهما لامه القوم وفيه اعتزاز الشاعر بنفسه وزيادة تهكم من المجادل العاذل. وليس هذا منتهى دلالات التراكيب فلننظر إلى الاستفهام الإنكاري في قوله "هل أنت مخلدي" ما أجمله وما أبلغه إنه تساؤل تتضمن الإجابة عنه أسرار كل تصرفاته، وكأنه يقول بهذا الأسلوب أيها اللائم لو أنك تدبرت ما في الكون من نظام الموت، والحياة لارتدعت عن الملامة، والمجادلة، ولكرهت البخل والجبن.

وأما البيت الثاني فيأخذنا جمال صياغته من مبدأه فالتعبير بحرف الشرط "إن" رغم أن عدم الاستطاعة على دفع الموت مما لا شك فيه، والسر فيه أن

الشاعر بهذا التعبير أراد أن يقول لخصمه توبيخا له على تعامله السيئ معه أنت أيها الخصم بتعاملك هذا معي مثل من يشك في أمر جازم هو أن دفع المنايا عن الناس ليس في مقدرة الناس بشيئ. وفي النهاية لنتأمل قوله في الشطر الثاني "فدعني" بصيغة الأمر الذي هو بمعنى النصح والإرشاد، ويكمن سر جماله في دلالته على حرص الشاعر على نصح قومهم وإرشادهم إلى ما هو متاع عز وفخر لهم ألا وهو الجود، والإنفاق قبل أن يأتي اليقين. ولا يخفى أن الحكمة هذه من حكم الحياة التي يؤمن بها أمثاله من أولئك الشبان الذين عكفوا على اللذات غير مبالين بالحياة، ولا حريصين على مال وجاه لأنهم عرفوا أن مقامهم في تلك الحياة قصير، وأنه ليس لحي بقاء.

قال: أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوي في البطالة مفسد
ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد[49]

المفردات: النحام: الزحار عند السؤال، وهو البخيل الشديد البخل، والزحار من الزحير وهو إخراج الصوت بأنين عند القيام بعمل شاق، والذي يتزحر بماله شحا كأنه يئن ويتشدد. والظرف بماله متعلق ببخيل. الغوي: من يتبع هواه ولذاته، والمقصود هنا المسرف في الإنفاق. البطالة: اللهو واللعب والظرف متعلق بمفسد، وعنى بالإفساد إفساد المال وإتلافه. الجثوة: التراب المجموع، وهو مفعول ثان للرؤية والأول ضمير مثنى محذوف راجع إلى القبرين. الصفائح: صخور عراض. الصم: الصلاب يقال حجر أصم إذا كان صلبا في غاية الصلابة. الصفيح جمع صفيحة كالصفايح وهو الحجر العريض، ومن بيانية. المنضد: اسم مفعول من نضده مضعفا إذا وضع بعض الشيئ على بعض، وتوحيد النعت لما أنه جمع على وزن المفرد.

معنى البيتين: أرى قبر شحيح يبخل بماله على الناس مثل قبر رجل غوي مفسد للمال في اللهو والعب، ولا أرى التفاوت بين قبريهما فهما كومتين من تراب وضع عليهما حجارة عراض صلاب منضود بعضها على بعض.

التذوق البياني: والذي يلفت انتباهنا في هذين البيتين لأول وهلة هو ألفاظه الدالة

على معاناة الشاعر من ملامة اللائمين فلنتأمل قوله أرى، وترى، والقبر، والجثوة، والتراب. كيف تتأزر هذه الألفاظ على ما يهدف إليه الشاعر من التوكيد على حضور الموت، والرد على العاذلين. ثم لنتأمل كلمة أرى بصيغة المضارع والتي يكمن سر بلاغتها في الدلالة على أن مشهد قبور البخلاء والكرماء والتي تتساوى فيما بينها لا يبرح ذلك المشهد يتراءى للشاعر ولا يغيب عن عينيه مهما حاول في إبعاده عن نظره، ولا يغب عن خاطرنا تنوين نحام، وبخيل الدال على التحقير والتعميم، ولا يبعد أن يكون فيه إيحاء بحقارة اللائم ثم لنتأمل في الصورة البيانية التمثيلية التي تنهض بمراد الشاعر نهضا تاما فالمقصود من البيت ليس بيان المساواة بين قبر البخيل، وقبر الجواد فإنها أمر بين لا يحتاج إلى البيان، وإنما المقصود إدعاء عدم التفاوت بين البخيل والجواد فلم ينقل إلينا مقصوده مباشرة، وإنما أتى به بصورة بيانية لتكون دليلا على دعواه، وأكثر تأثيرا على نفس المخاطب كما هو شأن التشبيه التمثيلي(50). ولم يكتف بالاستدلال على دعواه بالصورة البيانية، ولكنه لجأ إلى توكيده وتبيينه حيث قال "ترى جثوتين من تراب عليهما... وقل في قوله " ترى" مثل ما قلت في قوله: أرى قبر، ثم لا ينبغي أن نمر بتصرف الشاعر بحذف المفعول الأول للرؤية ظنا أن الذي أدى به إلى ذلك هو استقامة الوزن ؛ فإنه تحامل على القدرة الشعرية التي كان طرفة يتمتع بها ولكن الذي جعله يحذف هو خياله أن ذكره ربما أخل بمقصوده إذ ليس مقصوده الإخبار بكونهما من تراب بل المقصود توكيده على المساواة والمشابهة بين القبرين بما لا يمكن التفريق بينهما فكلاهما جثوة تراب عليهما حجارة منضدة لا يفرق بينهما أن أحدا يضم رجلا قد حرص على ماله فابقاه والآخر يضم رجلا قد طابت نفسه عن ماله فأتلفه إتلافا، وهذا المقصود لم يكن يتطلب إلا أن يعطي المتكلم المفعول الثاني حظا من عنايته أكثر. ولا يخفى أن هذه الحكمة تنطوي على نظرة واقعية من واقع الحياة، وما يؤول إليها الإنسان، ولا تصدر هذه النظرة إلا من متأمل متفكر ممعن فيما يدور حوله.

قال: أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخى وثنياه باليد[51]
متى ما يشأ يوما يقده لحتفه ومن يك في حبل المنية ينقد[52]

المفردات: يعتام: يختار يقال اعتامه واعتماه أي اختاره. عقيلة كل شيئ: أكرمه وأحسنه. الفاحش: القبيح السيئ الخلق وقيل البخيل. المتشدد: البخيل الممسك. العيش: يقصد به عمر الإنسان وحياته. كنز: ثروة. ناقصا كل ليلة: أي كلما مر يوم أو ليلة نقص ذلك من هذه الثروة، وهي العمر. ينفد: يذهب وينتهي، ولا يعود. لعمرك: قسم معناه: وحياتك، وفيه ثلاث لغات لعمرك باللام والرفع، وهي المختارة، ويقال عمرك بالنصب وإسقاط اللام، ويقال عمرك بالرفع وإسقاط اللام[53]. ما أخطأ الفتى: ما مصدرية ظرفية، أخطأ: لم يصب ولم ينزل به أي طول مدة عدم نزوله بالفتى. الطول: الحبل الطويل تربط به الدابة يطول لها في الكلأ لترعى. ثنياه: ما انثنى على يده وعطفه عليه. يقده: يسوقه. الحتف: الموت والهلاك. ينقد: ينساق ويطيع.

معنى الأبيات: أرى الموت يختار الكرام من الناس بالإفناء ويأخذ الخيار من مال البخيل اللئيم كما أرى الحياة مثل كنز ينقص كل وقت وما ينقصه الأيام والحوادث ينتهي يوما ما لا محالة، وأقسم بحياتك أن الموت في مدة إخطائه الفتى ومجاوزته إياه مثل الرسن الذي يشد به صاحب الدابة رجلها، ويرخيه لترعى ما شاءت، وقد أخذ طاقيه بيده فإذا شاء حذبه إلى نفسه فليس هذا إخطاء في الواقع، وإنما هو إمهال إلى مدة معينة لأنه متى شاء جره إلى الهلاك وهو لا يستطيع أن يقاومه بل ينساق وينخضع لمشيته.

التذوق البياني: التعبير بالمضارع في قوله " أرى الموت " فيه دلالة على أن فكرة البيت لا تكاد تغادر ذهن الشاعر، ثم لنتأمل الصورة البيانية في قوله يعتام ويصطفي حيث جعل الشاعر الموت يختار الأكرم، وينتقي الأحسن، وذلك لا يحدث وإنما الواقع أن موت العظيم المشهور، وفقد العزيز الغالي يكونان أظهر، وأشهر، وأقوى، وأشد وقعا على النفس فيقال كأن الموت يختار الأكرم والأحسن، ويكمن سر بلاغة هذه الصورة

فيما لها في النفس من تأثير أكثر مما للتعبير المباشر، على أن فيها دلالة على حث الشاعر الكرام والبخلاء على أن يستمتعوا بالحياة وبما يملكونه قبل أن يختطفهم الموت أو تأتيهم كارثة تذهب به فيزدادوا ألما وحسرة[54] ولو لجأ إلى التعبير المباشر لما كان له من النفس موقع ما لهذا التعبير التصويري، ثم لنتدبر كلمة يعتام بصيغة المضارع وكذلك يصطفي، وكلمة: عقيلة، والفاحش، والمتشدد كيف تتآزر كلها لتؤكد هدف الشاعر وهو الحث على الاستمتاع بالحياة، فالمضارع: يعتام ويصطفي يؤكد أن إصابة الكرام والبخلاء بالموت نظام من نظم الكون لا مفر منه لأحد، فلم لا تستمتعون أيها الناس بحياتكم وأموالكم، وعقيلة الفاحش المتشدد تؤكد أن المال لا بد من نهايته مهما كان نفيسا ومهما احتال صاحبه في الحفاظ عليه، ففيم الإعراض عن الاستمتاع ؟ ثم يقول أرى العيش كنز ناقصا " ما أروع التشبيه فيه ذلك التشبيه الذي يكمن سر بلاغته في الدلالة على أن عمر الإنسان في هذه الحياة ثروة وكنز عظيم على الإنسان أن يستغله أحسن استغلال فيما يعود عليه بالخير والسعادة لا فيما يعيبه ويزدريه، ثم لنتأمل كلمة "ناقصا كل ليلة " كيف تؤكد هذه الفكرة وكأنه يحثه على سرعة الاستمتاع بحياته ما دام حيا فإن حظ الإنسان من عمره ينتقص كل ساعة، وأنه سيؤل إلى النفاد لا محالة فمن العقل أن لا يتعلق الإنسان به، وألا يحرص على جمعه وكنزه[55]. ولا يفتنا التدبر في كلمات: ليلة، والنقص، والأيام، والدهر فإنها لها في هذا الموقع مذاقا عجيبا هو أنها تحمل في ظلالها أفكارا عجيبة مخيفة من شأنها أن تجعل الإنسان مسرعا في السعي لنيل سعادة الدنيا، فكثيرا ما يسرع الإنسان في سعادة الدنيا حين يفكر في الحوادث ونقص العمر، ولله در طرفة كيف استطاع أن يستعمل مثل هذه الوسائل في الوصول إلى مرماه. ثم لننظر في البيت الثالث وما فيه من تمثيل عجيب كيف يمثل حال الإنسان مع الموت بدابة تربط في حبل ويمسك صاحبها بطرفه ليرخي لها الحبل حين تريد الرعي وليجذبها حين يشاء صاحبها أن تعود، وهكذا الإنسان قد مد له في أجله وهو في يد من يملك قبض روحه والذي يملك قبض روحه هو قائده والإنسان تابع له لا يستطيع أن يخالف مشية قائده، وينكشف سر بلاغة هذه الصورة أنها نقلت صورة الموت وحال

الناس معه بشكل محسوس فأبانت المعنى وجعلته أكثر وضوحا وأقرب إلى النفوس وأدخل إلى القلوب وهذا من فوائد التمثيل التي عدها الإمام عبد القاهر في الأسرار البلاغة[56]. ولا يفتنا تذوق ما في قوله: يقده من صورة بيانية حيث شبه الموت بإنسان يقود ثم حذف المشبه به ورمز له بشيئ من لوازمة وهو القيادة، ويكمن سر بلاغتها في نقل الأمر المعقول في الوجه المحسوس، على أن كلمة " يقده " فيها أيضا إيحاء بعجز الإنسان عن دفع الموت، وإذا كانت هذه هي الحياة فلماذا الصراع، والخلف بين الناس، ولم الهجران والملامة يا ابن عم[57]. ألا نشعر ونحن نقرأ هذه الأبيات أننا أمام حكيم خبير مجرب قد أثقلته التجارب.

قال:أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غد[58]

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

و يأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتا ولم تضرب له وقت موعد[59]

المفردات: الأعداد: جمع عدد والمراد بأعداد النفوس على قدر ها، زوده: تعطيه زادا. لم تبع له: لم تشتر له. البتات: الزاد وكساء السفر، ومتاع البيت.

معنى الأبيات: أرى الموت على قدر أعداد النفوس فلكل نفس موت إما اليوم أو عدا ولا أرى الغد بعيدا من اليوم ثم يتعجت من قرب اليوم من الغد فيقول ما أدنى اليوم من الغد ثم يقول في البيت الثاني إن الزمن يظهر الحقائق، ويكشف المستور، ويعرفك بما لا تعلمه، وقد يأتيك بالأنباء من لا تطلب منه، ومن لم تسأل عنه، وأعلم أن الحقائق لا تخفى وإن خفي فستظهر عاجلا أم آجلا، وقد تأتيك بالحقائق عن طريق لا تتوقعها، ومن شخص لم تشتر له زاد السفر من قبل، ولم تلتق به من قبل.

التذوق البياني: لم يبرح طرفة يدافع عن فلسفته في الحياة والتي تتمثل في الإسراف، والإقبال على الملذات وشهود القتال، ويرد على البخيل والجبان واللائم، ولم ينفك يقدم تصور الكون والحياة والانسان ويوبخه على الهجران إذ إن مغزى البيت الأول أن عمر الإنسان فترة قصيرة ستنتهي عاجلا أم آجلا، والعاقل هو من يقضيها

في أمان واطمئنان، وحب ومودة وصلات طيبة مع جميع الناس، ومن الحمق أن يقضيها الإنسان في هجر، وبخل، وملامة، وكل ذلك بأسلوب خبري "أرى الموت أعداد النفوس ولا ارى بعيدا غدا" ولم يكتف بذلك بل أتبعه مؤكدا له أسلوب التعجب: ما أقرب اليوم من غد. وليس هذا كل ما في هذه القطعة فلنتأمل في قوله ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا بصورة المجاز العقلي حيث جعل الفعل للأيام وهو من أفعال الله في الحقيقة، ثم إن قوله السابق وقوله " ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتا " يقدم من خلالهما نصحا عظيما هو أن الحقائق لا تخفى، وإن خفي منها شيئ بعض الوقت فسوف يظهر بمرور الزمن فمحاولات طمس الحقائق لا تجدي، وأن التكلف لا يجدي فعلى الإنسان أن يلتزم بالصدق في حياته، وينبذ التكلف والتشدد على طبعه، وعلى هذا فما تراه من أمري الذي تلومني عليه وتهجرني به إن هو إلا طبيعتي وفطرتي، ومحاولة مني على التخليد بذكرياتي.

ومن الحكمة والمثل ما قاله:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند(60)

المفردات: مضاضة: مرارة وألم وعذاب. الحسام: القاطع. المهند: المنسوب إلى الهند وهو أحسن السيوف.

معنى البيت: إن الظلم الذي يواجهه الإنسان من أحد أقاربه يكون شديد الوقع على النفس إلى أقصى حد، والذي يشعر به الإنسان تجاه ذلك الظلم أكثر وجعا وألما من ألم السيف الهندي.

التذوق البياني: يقول إنه سعى بكل ما كان في وسعه للدفاع عن أعراض نفسه، وأقربائه، ولم ين في ذلك قط، ومع ذلك أقرباءه يهجرونه ويلومونه وهذا هو الظلم الذي يكون على الإنسان أشد وأوجع، وذلك لأن الإنسان دائما يتوقع من ذوي القربى العون والمساعدة، والوقوف بجانبه ونصرته في أخذ حقه ممن ظلموه لا أن يرتكبوا هم أنفسهم الظلم ضده فإن حدث ذلك منهم سببوا له ضيقا، وألما، وعذابا ثم إن المظلوم في تلك الحال لن يكون في الغالب جادا في الانتصاف

من القريب الظالم بل ربما انطوى على نفسه فيما يلقى فيحس لذلك ألما شديدا، وكل هذه المعاني والأحاسيس لخصها، وأوجزها الشاعر في هذا البيت الحكيم وهذا هو سر امتلاكه القلوب والنفوس.

خاتمة

بعد هذا الشوط الممتع الذي قضيته في إنجاز هذا البحث يمكن تلخيص ما جاء فيه في النقاط التالية:

1. إن الحكمة هي الكلام المعقول المصون عن الحشو، وهي لا تخلو عن أثر بيئة الحكيم.
2. إن مصادر حكمة الجاهليين تتمثل في الحس الصافي المقرون بالذكاء الفطري، وبصيرتهم النافذة وبيئتهم وتجاربهم التي مروا بها.
3. إن العلاقة بين الحكمة والمثل هي أن كل مثل حكمة دون العكس وهناك أسس تميز بينهما.
4. الحكمة لها سمات تتسم بها وتتمثل تلك السمات في البساطة، والوضوح، وورودها في ثنايا الموضوعات المتعددة، وتأثرها بالبيئة.
5. ولد طرفة بين سنتي 528 – 543 م وعاش يتيما في بيئة تتكون بأب متوفى، وأم مظلومة، وإخوة صغار، وأعمام ظلمة فكان لهذه البيئة أثر كبير في حياته وشعره ولكن رزقه الله في صباه بالموهبة والفطنة والذكاء الوقاد والحس الصافي العجيب فعاش معتدا بنفسه، مفتخرا بشجاعته، وفروسيته، مدللا بمكانته في قومه، مرخيا لنفسه العنان في هجاء من شاء من الناس، مبيحا كل الملذات لنفسه. وقتل في عهد عمرو بن هند على يد عامله بالبحرين.
6. اختلاف العلماء في اسمه ولقبه وكنيته، واختلافهم في عمره، وشكوكهم في قصة قتله. ولكنهم لا يختلفون في أنه كان يتمتع بمنزلة شعرية ونظرا إلى معلقته كان يستحق أن يتبوأ الإمارة الشعرية بعد امرء القيس بل كثير منهم يفضل معلقته على المعلقات الأخرى كلها.

7. تتسم معلقته بسمات الشعر الجاهلي فهي متعددة الأغراض، وفيها بساطة التراكيب ووضوحها ومتانتها وإحكامها، وأثر البداوة وملامحها في بعض ألفاظه، كما أن فيها صدق الإحساس والعاطفة، ودقة التصوير والتعبير عن الحياة والبعد عن الاستدلال الفلسفي.
8. أبيات الحكمة من معلقته وإن كانت تخاطب العقل إلا أنها لا تخلوا من سمات شعر جيد وهي ليست شعرا منطقيا جافا لا يهز القلوب، ولا يحرك المشاعر، بل تنطوي على كثير من أسرار الشعر يظهر عند التأمل في الكلمات والصياغة، أما كونها قليلة الحظ من الصور البيانية من التشبيه والاستعارة فلأنها تخاطب العقل دون القلب،و مع ذلك استطاع الشاعر أن يأتي بألفاظ موحية، وتراكيب حاملة الأسرار البلاغية على نحو ما وضحته في الفصل الثاني عند التحليل.

الحواشي والمراجع

1. ابن فارس، أحمد، الإمام: معجم مقاييس اللغة، بيروت: 1979م، 91/2.
2. ابن منظور، محمد بن مكرم،الامام: لسان العرب ط.1، بيروت: 711هـ، 2/ 951.
3. الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب الإمام: القاموس المحيط،ط.، قاهره: 4/ 97.
4. .....المعجم الوسيط، ط.4، القاهرة، 220.
5. الجرجاني، السيد الشريف العلامة: التعريفات، ط.3، بيروت: 1985م، ص 96.
6. زكي, طليمات: الأدب الجاهلي قضاياه وأغراضه وفنونه، ط.1، دمشق: 1992م، ص 210.
7. السابق ص 212.
8. السابق 215.
9. النيسابوري، أحمد بن محمد الميداني: مجمع الأمثال، ط.2، القاهرة: 1955م، ص 55.
10. قطامش، أبو عبيد القاسم الدكتور عبد المجيد: الأمثال، ط.1، مكة مكرمة: 1980م، ص24.
11. السيوطي، جلال الدين، الإمام: المزهر في علوم اللغة، ط.1، لبنان: 2/ 486.
12. عفيف، عبد الرحمن: الأمثال العربية القديمة، مقالة بالمجلة العربية، الكويت: 1983م، عدد 10، مج 3. ص 33.
13. طه جمانة: الروائع في الحكم والأمثال، ط.4، السعودية: 2002م، ص 34

14. عفيف، عبد الرحمن، الأمثال العربية القديمة، الكويت: 1983م، عدد 10 مج 3، 1983.
15. زكي، طليمات، الأدب الجاهلي قضاياه وأغراضه وفنونه، ط.1، د. وأستاذ عرفان الأشقر ط، دمشق: 1992م، ص 221.
16. ا لتبريزي،العشر: شرح المعلقات، ص 82، المعلقات العرب وأخبار شعرائها، ص 38، رياض الفيض على المعلقات السبع ص81.
17. ألقاب الشعراء ص 320، معجم الشعراء ص 5، ومعاهد التنصيص ج 1 ص 364، وشرح شواهد المغني 222.
18. مهدي، ناصر الدين، محمد: ديوان طرفة بن العبد، ط.2، بيروت: ص 176.
19. محمد بن حبيب: كنى الشعراء، ط.1، لجنة التأليف والترجمة والنشر 1954م، ص 228.
20. الأشناندانى، أبو عثمان، الإمام: معاني الشعر، ط.1، دمشق: 1922م، ص160.
21. المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران، معجم الشعراء، ط.5، بيروت: 1960م، ص 5.
22. محمد بن حبيب: ألقاب الشعراء، ط.2، بيروت: 1994م،ص 320.
23. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله ابن مسلم الإمام: الشعر والشعراء،محمود محمد شاكر، ط.1، مصر: 1966م، 1/ 185، ومعجم الشعراء ص 7.
24. عبد العزيز النبوي، دكتور، دراسات في الأدب الجاهلي، ط.1، مصر: ص 190.
25. طرفة بن العبد حياته وشعره: رسالة علمية، بجامعة الملك عبد العزيز، مكة مكرمة: 1980مص: 115
26. الأصفهاني، أبو الفرج، كتاب الأغاني، الدكتور إحسان عباس وزملائه، ط.1، مصر، 14/ 95.
27. السقال، الخطيب ولطفي: ديوان طرفة بشرح الأعلم الشنتمري، ط.3، دمشق: 1975م، ص 41 –42.
28. السقال، الخطيب ولطفي، ديوان طرفة بشرح الأعلم الشنتمري، ط.2، دمشق: 1975م، ص 41، وشرح القصائد العشر ص 95.
29. الأنباري، أبوبكر: شرح القصائد السبع الطوال، ط.5، القاهرة،.ص 90
30. الجواليقي، أبو منصور، الإمام: شرح أدب الكاتب، ط.3، القاهرة: 1350هـ،ص 85
31. ينظر أمثال الضبي 103، 104، الشعر والشعراء 1/ 183 – جمهرة اللغة م قنو (نوق) – الأغاني 21/ 132، 133 – الصناعتين ص43 – ضرائر الشعر 17.
32. ورقة 37 من مخطوطته، والموازنة ص 36، منتخب الكنايات ص 144.
33. ينظر جمهرة الأشعار 31 – 32 والموشح ص 111.
34. القيرواني، ابن شرف: أعلام الكلام،ط. الخانجي بمصر: 1926م ص 16.
35. الأنباري، أبوبكرابن، ت. عبد السلام هارون: شرح القصائد السبع الطوال، ط.5،القاهرة: ص 196

36. السابق ص 183– 192
37. مهدي، ناصر الدين، محمد: ديوان طرفة بن العبد، ط.2، بيروت،ص 99
38. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله ابن مسلم، الإمام:الشعر والشعراء، ت محمود محمد شاكر، ط.1، مصر: 1966م.1/ 185
39. الأشناندانى، أبو عثمان،الإمام، معاني الشعر، ط.1، دمشق: 1922م، ص 160
40. الحسين بن أحمد،أبو عبد الله، الإمام، شرح المعلقات السبع، ط.1، القاهرة: ص 43
41. البستاني،البطرس: أدباء العرب في الجاهلية وصدرالإسلام، بيروت: 1989م ص 119
42. الجمحي، ابن سلام، الإمام، طبقات فحول الشعراء، ت نمحمود شاكر، ط.1، جدة: ص166.
43. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله ابن مسلم، الإمام: الشعر والشعراء، ت محمود محمد شاكر، ط. مصر 1966م.1/ 1851.
44. القيرواني،رشيق،العمدة لابن ج1 ص 210.
45. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله ابن مسلم، الإمام:الشعر والشعراء، ت محمود محمد شاكر، ط. مصر: 1966م، 1/ 186.
46. بدوي طبانة، دكتور،معلقات العرب، ط. الرياض: 1984م 106.
47. مهدي، ناصر الدين، محمد، ديوان طرفة بن العبد، ط. بيروت، ص 25.
48. الجرجاني،عبد القاهر الإمام: دلائل الإعجاز، ت محمود محمد شاكر، ط. القاهرة. ص 143.
49. مهدي، ناصر الدين، محمد: ديوان طرفة بن العبد ط. بيروت.ص 26.
50. طه حسين، دكتور، حديث الأربعاء، ط. بيروت، 1/ 73.
51. مهدي، محمد ناصر الدين، ديوان طرفة بن العبد، ط. بيروت،ص 26.
52. بدوي طبانة، دكتور، معلقات العرب، ط. الرياض: 1984م، ص 281.
53. علي جندي، دكتور: عيون الشعر العربي القديم، ط القاهرة: ص 72.
54. السابق ص 72.
55. طه حسين، دكتور، حديث الأربعاء، ط. دار المعارف 1/ ص.
56. الجرجاني، عبد القاهر، الإمام: أسرار البلاغة،– ط. جدة، ص 90.
57. الزواوي، خالد، دكتور، مكارم الأخلاق في الشعرالجاهلي، مصر، ص 119.
58. بدوي طبانة،دكتور،معلقات العرب، ط. الرياض: 1984م، ص 58.
59. مهدي، ناصر الدين، محمد، ديوان طرفة بن العبد، ط. بيروت ص 29.
60. السابق، ص 27.

*_*_*